

## ملاحم من الحياة الفنية فى ظل الحضارة العربية الاسلامىة

بدر الدين أبو غازى

على امتداد الساحة التى تكون منها وطننا العربى ، قامت حضارات عظيمة كانت الفنون التشكيلية من أروع ما قدمته من عطاء •

ولقد شكلت حضارة النيل وحضارة الرافدين منذ القدم تيارا حافلا بروائع العمارة والفنون التشكيلية الأخرى وامتد تأثير هذا التيار الى مواقع أخرى من الوطن العربى فجاءت فنون فلسطين متأثرة بفنون هذه الحضارات ، وفى سوريا ظهرت حضارة فنية عظيمة فى تدمر مازالت شواهدا الطبيعية وبخاصة فى النحت تنبىء عن شأو هذه الحضارة وقدرها •

وظلت شبه الجزيرة العربية التى اشرق عليها الاسلام حافظة أسرارها التشكيلية حقبة طويلة من الزمان لم نتمثل فيها خيالها التصويرى الا فى الشعر الجاهلى الى ان ازيحت الرمال التى حجبت آثار الجانب السعيد من شبه الجزيرة فى اليمن وعدن وحضرموت فظهرت بقايا قصور ومعابد ، وتمائيل من الحجر والالباستر والعقيق تمثل شخوصا فى حركة صراعة وكذلك حيوانات وزخارف نباتية اجتمعت فيها تأثرت عدة من حضارات مختلفة تمثلها سكان الارض السعيدة خلال طوافهم بالعالم سعيا وراء التجارة •

وما ان أخذ الاسلام ينشر نوره على الوطن العربى حتى ظهر الفن الاسلامى متميزا بسماته الخاصة حافظا على امتداد الوطن العربى سمات وخصائص مشتركة لا تخطئها العين اسهمت فى صهرها عبقرين الدين وتجانس الاصول •

ولقد ظهر هذا الفن مرتبطا بحياة المجتمعات مستجيبا لاحتياجاتها متسقا مع عقيدتها فكان تعبيراً صادقاً عنها في كل ما جاء به من شوامخ العمارة حتى متمتات العاج وأدوات الحياة •

في العمارة العربية يتمثل صفاء العقيدة وإدراك مقتضيات المكان ويتجلى ذلك في الربط بين الفراغ المحسوس والفراغ اللانهائي وفي دخول السماء في تشكيل البناء عن طريق الرمز بواسطة الصحن وفي التعبير عن كنه الحياة من خلال مظاهر التباين والتجانس وتكامل الفراغات وتداخلها وفي ابتداع الحلول لمعالجة الظروف المناخية ، وتنسيق المواقع وتحقيق الارتباط بشواطئ الأنهار والقنوات ، كما ظهر في بغداد والقاهرة على سبيل المثال •

ولقد تحقق التجانس بين منطق العمارة العربية ومنطق تخطيط المدن العربية بصورة من الروعة والرواء ، هكذا كانت انفساط كما وصفها ابن حوقل وإفاض في ذكر روعة تخطيطها وعظمة أسواقها وغمامة متاجرها وظاهرها الانيق وبساتينها النضرة • وكذلك كانت دمشق عاصمة الأمويين في بهائها العظيم •• كما قامت بغداد عاصمة المنصور بتخطيطها الرائع وبنائاتها الشاهقة وأصبحت مراكز بقصورها وحدائقها أشبه ببغداد في الشرق كما أشبهت مدينة فاس دمشق في روائها الفني وطبيعتها الخلابة ومثلت القيروان القيم المعمارية في المدن العربية على أروع صورها •

ومهما تنوعت ابتكارات العبقريّة العربية في التخطيط والعمارة فإن الفن العربي كله تسوده وحدة داخلية تكمن في شخصيته وتربط أكبر الأشياء بأصغرها برابط وثيق فلوحات قاعات الحمراء المنحوتة وصفحات القرآن المزينة وزخارف النوافذ تجمعها كلها وحدة كما يقول جورج مارسيه •

ولعل غيم اختفى من فنون الإسلام أشياء أروع من بعض

ما بقى فما زال الخيال يخلق متمثلا قصير عمرا وما كان فى ايوانه من روائع النقوش التى تروى انتصارات الامويين ومسارح ليهوهم ومناظر الصيد والراقصات ...

ونقد كشفت الحفائر فى سامراء عن روائع تصويرية قريبة الشبه باللوحات الجدارية التى عثر عليها فى حى أبى السعود بالقاهرة كما كشف جامع المتوكل عن الصلات بين عمارته وعمارة جامع ابن طولون كدليل على التبادل والاخذ والعطاء بين فنانى الوطن العربى فى ذلك الزمان .

واذا كان التاريخ لم يبح الا بالقليل من خلال اطلال الفسطاط فان ما بقى لنا من روائع وصفها ينبىء عن ازدهارها الثقافى واحتوائها لابداعات من الفنون .

كما أن التاريخ يوحى الينا بأبهة القصور الطولونية وحدائقها ونقوشها اللازوردية التى ذهب بها الزمن ، والتماثيل المتحركة التى كانت تشغل ابهاء تلك القصور ولكن مسجد ابن طولون ظل باقيا بأعمدته السامقة ومنارته وزخارفه التى تمثل نهجا عزيزا على الفنان الاسلامى ولنا أن نتمثل فى الاشكال التى تعلو اسوار المسجد ملامح تماثيل تجريدية لاشخاص وكائنات تشير الى شغف بالفن والى قدرته على ابداع أشكال رائعة منه مضمرة فى كيان العمارة ، فاذا ييمنا وجوهنا نحو الغرب تمثلنا مساجد الموحدين بجلال صحتها وصفاء أقواسها وبدت لنا هذه المجموعة المعمارية الخلافة التى تجمع بين الوداعة والرقعة كما بدت لنا روعة العمارة المغربية فى المساجد المنتشرة فى ربوع المغرب .

لقد كان المسجد كما كان القصر محتوى لروائع مبهرة التقت فى كليهما روائع الفن الاسلامى ومثخصاته ... الزخارف والخطوط

والنقوش وتشكيلات الفسيفاء وفنون الزجاج والمنحوتات الخشبية وغيرها وبهذا اجتمعت في دور العبادة ودور السكن قيم فنية رائعة .

على أن ارتباط الفن بالمنشآت العامة على النحو الذي يبدو لنا الآن عند الأوروبيين كان من مظاهر الفنون العربية الاسلامية في اتصالها الحميم بمجتمعاتها ...

ولعل ما بقى من حديث المسعودى في مروج الذهب عن صور العنقاء في الحمامات ورسوم العيد والرقص وما كشف عنه من بقايا تدل على استخدام الصور المائية على الجص في حمامات سامراء والقاهرة وما خلفه يوسف بن عبد الهادى في كتابه عدة الملمات في تعداد الحمامات من وصف لحمامات دمشق كل ذلك من دلالات عناية المجتمع العربى بالفن وارتباطه بمظاهر حياته .

يقابل ذلك ما حفلت به البيمارستانات من نقوش ولوحات تحتية يكفى دليلا على روعتها ما بقى منها مما كان يزين بيمارستان قلاوون في القاهرة . وما تنبئ عنه التواريخ من عظمة بيمارستان مراکش الذى أقيم في عهد الموحدين وروعة نقوشه واحكام زخارفه .

ولو أردنا السرد لضاق بنا المجال فحسبنا هذه الاشارات للدلالة على ارتباط الفنون بالمجتمع الاسلامى . ان هذا المجتمع الذى كان مشغولا ، بنظافة البدن كما كان مشغولا بنظافة الروح استطاع أن يجمع في الحمام كتجسيم لهذا المعنى روائع الفن ولطائف ادوات الزينة ولقد كانت أسواق الفسطاط ودمشق وبغداد والقاهرة عامرة بهذه الادوات في مجتمع يدعو الناس الى أن يأخذوا زينتهم عند دخول المسجد ويجعل النظافة من الايمان والجمال من مطالب الحياة .

ولذلك كان الفن صنوا للحياة وكانت أدوات الزينة ضربا من الفن ولقد أفاض ناصر خسرو في ذكر هذه الروائع الفنية من أدوات كما القى عليها المقرئى الاضواء وبقيت لنا منها دلائل على اهتمام الفنان العربى ببث القيمة والمعنى فى أصغر الاشياء •

لقد بدأ ناصر خسرو الرحلة الى العالم الاسلامى وجاء مصر فى القرن الحادى عشر الميلادى فبهره رخاءها العظيم وأسواقها العامرة وتحفها الفنية ، وقد وصف ناصر خسرو مدينة القاهرة المعزية وصفا رائعا تحدث عن عمارتها وحوانيتها ، ووقف بقصر « السلطان » كما كان يسمى الخلفاء الفاطميين •• شهد بناءه الشامخ وفرسان الليل الذين يحرسونه وأسواره العالية وبواباته العشر كما وصف أبواب القاهرة الكبرى - باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة وباب القنطرة وباب الخليج واستحوز على اعجاب بيوب القاهرة وحداثتها واعيادها فقال •• « لو وصفت هذه الاعياد لما صدقنى كثير من الناس ولرمونى بالمبالغة والاغراق فان حوانيت القصايين والصياغ والحوانيت الاخرى مفعمة بالذهب والحلى والنبضائع والاقمشة من الحرير والقصب لدرجة لا يجد فيها المشتري محلا يجلس فيه » •

ومما لفت نظره ان التجار كانوا يبيعون باثمان محددة وان الذى كان يغش الناس كانوا يركبونه ويضعون فى يده جرسا يدقه ويطوفون به فى البلد وهو يصيح بأعلى صوته « لقد كذبت وهأنذا القى عقابى جزا الله الكاذبين » •

مجتمع حضارى تلاقت فيه الرفاهة والفن والقيم الاخلاقية •• وقد بهر من هذا المجتمع أيضا فنونه وصناعاته فوقف أمام مصانع النسيج وادهشته مهارة النساجين الذين كانوا يشتغلون فى مصانع الخليفة •

كانت أروع المنسوجات تصنع فى مدينة تيس وتصدر الى القاهرة •

ووصف ناصر خسرو سوق القناديل بجوار جامع عمرو فقال انه لم يعرف مثله في أى بلد آخر •

وأعجب ناصر خسرو بما شاهده من البللور الصخرى في سوق القناديل وذكر أنه كان مشغولاً بأسلوب فنى على أيدي صناع لهم ذوق رقيق ، وخرجت معظم تحف البللور الصخرى من مصر الى كنائس الغرب ومتاحفه لما تمثل فيها من رمز للنقاء الروحى •

وأشار ناصر خسرو الى صناعة الخزف في العصر الفاطمى فقال أن المصريين كانوا يصنعون أنواع الخزف المختلفة وان الخزف المصرى كان رقيقا وشفافا حتى لقد كان ميسورا أن ترى من باطن الاناء الخزفى اليد الموضوعة خلفه •

وكانت تصنع بمصر الفناجين ، والقدرور والبرانى والصحون وتزين بألوان تشبه القماش المسمى بوقلمون وهى ألوان تختلف باختلاف أوضاع الانية •

وهذا الخزف ذو البريق المعدنى بهر ناصر خسرو كما أدهشه أيضا أن التجار والبقالين كانوا يستخدمون الاوانى الخزفية فيما يستخدم فيه التجار الورق في العصر الحاضر فقد كانوا يضعون في هذه الاوانى ما يبيعونه ويأخذها المشترون بالمجان •

هذا حديث شاهد رؤية قدم القاهرة في عصر الفاطميين وبهرته فنونه ولكن أقدم من كتب عن الفاطميين وهو ابن ذولاق المتوفى سنة ٩٩٨ م لم يقدر لمؤلفاته أن تصلنا بينما ظلت « سفرتامة » لناصر خسرو محفوظة وترجمها الى العربية الدكتور يحيى الخشاب سنة ١٩٤٥ •

وثمة مؤلف آخر هو ابن ميسر صاحب كتاب « أخبار مصر » تناول العصر الفاطمى وابتهه وسخاء ما أخرجه •

وقد ذكر فيما ذكر أنه رأى مجلدا من نحو عشرين الف كراسة يحوى بيان ما خرج من التحف والاثاث والثياب والذهب ولم يقطع المؤرخون ومنهم الدكتور زكى محمد حسن فيما اذا كان هذا البيان يمثل سجل تحف العصر الفاطمى أو هو بيان ما نهب من التحف فى سنوات الشدة العظمى وما تفرق منها •

ومهما يكن من أمر فان شواهد التاريخ تشير الى أن ما تحتفظه جنبات المتحف الاسلامى بالقاهرة ومتاحف العالم كله من كنوز الفاطميين لا يمثل الا القدر اليسير الذى حفظه الزمن من هذا العصر فقد كان الفن فى هذه العصور العربية الاسلامية فن حياة لا يختفى فى سرايب المقابر كما تخفت فنون الفراعنة فجاءتنا بعد آلاف السنين طوية الزمن محتفظا بما لها من بهاء وجلال •

كانت مصر ارضا خصيبة للفنان الاسلامى وبخاصة منذ العصر الفاطمى فلئن كان العصر الطولونى ظل مشدودا الى فنون سامرا فان الفاطميين وقد اصبحوا اصحاب دولة وخلافة كانوا أكثر انتماء الى المكان •• لمسوا فيه التجانس والوحدة وهذا الصمت الجغرافى الواضح الرحيب الذى يغاير سمت بلاد المغرب التى قدموا منها •

وقبل هذا كله راعتهم شوامخ حضارية فى تاريخ مصر الفرعونية هى من عبقرية هذه البيئة ومن فيض الوجدان المصرى ، فلا غرابة أن تأخذهم روح المكان وأن يحتضنوا لاكثر من اعتبار فنانيه وصناعه ويمدوا اليهم أسباب التشجيع وان تشهد القاهرة بعثا قنيا ينفث فى فنونها هذا البهاء الشعرى الاخاذ ••

ويتحرك وجدان النحت والتصوير فى نفس الفنان فيفيض على الواح الخشب ومنحوتات الرخام وأوانى الخزف ، وقطع النسيج •

فى الافاريز الخشبية التى كانت تزين القصر الغربى الفاطمى نرى الانسان يأخذ مكانه فى أعمال الفنان القاهرى بعد أن كان

الفن تجريدا هندسيا ، نلمح صور الاشخاص وراء هذه الخلفية من الزخارف ونشهد عراكلهم في ساحات الصيد واندماجهم في مجالس الغناء والرقص .. مسرح من التناسق التشكيلي مزج العناصر الهندسية المجردة والعناصر التشخيصية مزجا موفقا واستطاع بخطوطه المحددة أن يعبر عن الحركة وان يبرز الكتلة النحتية ابرازا رائعا مع امتلاكه سر التحوير والتبسيط الذى يسقط العارض والتفاصيل من أجل تأكيد المعنى التشكيلي .... ومن هنا تختفى تفاصيل ملامح الوجوه في هذه الافاريز ولئن رد الرأى التاريخى هذا الاسقاط الى التزام الفنان تقاليد لا يتخطاها والى الحرج فى تصوير وجه الانسان ، الا ان هذا الرأى تعارضه الحاسة التشكيلية مجردة عن الاعتبارات الاثرية وترده الى نزول الفنان الفاطمى على مقتضيات التشكيل فهو فى هذا النحت الخشبى قد جرد وجه الانسان كما جرد ملامح الحيوان والطير أيضا من أجل تحقيق التناسق بين الحشد الزخرفى فى خلفية النحت وبين التبسيط المطلق فى الاشخاص والطيور والحيوان وبهذا حفظ للعمل الفنى وحدته وارتباطه عن طريق المقابلة بين أسلوبين فى التشكيل أسلوب النحت الزخرفى فى الخلفية وأسلوب التبسيط وابرار الاحجام فى المجموعات ، ويؤيد ذلك أن هذا الفنان لم يتخرج من أن يصور وجوه الاشخاص على الاوانى الخزفية صريحة واضحة مؤكدة ، وأن يمثل الراقصات والعازفين وتفاصيل الطيور والحيوان •

فهو يحفظ التفاصيل حيث تملئها الصورة التشكيلية ومقتضيات الجمال وهو يجنح الى التبسيط استلهاما لهذه المقتضيات ، واروع نماذج التبسيط فى النحت تلك التى تتمثل فى تماثيل الحيوان من البرونز فهى تبدو فى تحويلها التشكيلي وكأنها من انتاج نحائى الحيوان المعاصرين •

وحين يعالج الفنان الرخام يجنح الى اسلوب آخر فهو دائما



يمتلك سر الخامة ويدرك معطياتها وما تماثيل الاسود الفاطمية والملوكية الانماذج دالة على هذه القدرة •

ولقد كان الاسد محورا من محاور الفن ، استهوى الشاعر العربى كما استهوى الفنان الاسلامى •

ويحدثنا ابن خلكان عن تمثال الاسد من الرخام الذى أمر الخليفة المتوكل باقامته عند مقياس الروضة ، كما يصف عبد الغنى النابلسى فى رحلته الحقيقية والمجاز تماثيل أسود قنطرة الخليج القاهرى التى ظلت رابضة فى مكانها حتى شوهاها صائم الدهر المتصوف كما روى المقرئى فى خطه •

واذا كان الخشب والرخام مجال التعبير عن الوجدان النحتى للفنان الاسلامى ، فان الخزف والتشييع كانا من مسارج الوجدان التصويرى فيما احتوته النماذج التى وصلت اليها من روائع الالوان ومشاهد الناس والطيور والحيوان وهذه الخزارف التى تعايشها كانها حلم الفنان بفردوس قدسى تسبح فيه الكائنات • • ويبلغ الحس اللونى عند الفنان الفاطمى حد الاعجاز فى خزفه ذى البريق كما يبلغ الشكل كماله المعجز فى تلك الأعمال التى حفظت أسماء صانعيها وعكست أساليبهم فأسلوب الخزاف « مسلم » يختلف عن أسلوب « سعد » كما يختلف عن أسلوب « على البيطار » مما يدل على أن الشخصية الفردية وجدت ازدهارها فى ظل الشخصية الجماعية العامة للفن الاسلامى •

وظل الخزف يستعير من الصين براعاتها ، ومن الحيوانات الاسطورية الاغريقية التى أضافتها الى مشاهد البيئة موضوعاته حتى جاء العصر الملوكى من فنانى الخزف أعطوا لهذا الفن خصائصه فى ذلك العصر مثل غيبى والتوريزى •

وكان أبو العز آخر الخزافين الذين شاعت شهرتهم فى العصر

الملوكى ورث عن أسلافه براعتهم وقدرتهم الفائقة على التنسيق الزخرفى وحسهم الهندسى الذى هجر التشخيص الى التجريد •

هؤلاء الفنانون وغيرهم جديرون بأن نستجلى شخصياتهم وخصائصهم من خلال هذا الخط الجماعى المديد للفن الاسلامى فى مصر •

ولقد عكف معهد أبحاث الفنون الاسلامية بجامعة ميتشجان منذ سنة ١٩٣٥ على الاعداد لمعجم بأسماء الفنانين المسلمين يسهم فى كتابته الاخصائيون فى العالم كله ويشمل أسماء المهندسين والخطاطين والمصورين والمذهبيين والمجلدين والنساجين وصناع السجاد والتحف الزجاجية وبدأ نشر دراساته منذ سنة ١٩٣٨ •

وما أجدرنا بأن نفيد من هذه الجهود وغيرها وأن نضيف اليها لفزداد تعرفا وارتباطا بفنانى العصر الاسلامى •• ما بقى لنا من معالم حياتهم وما حفظه الزمن من اعمالهم وما نستطيع ابرازه من خصائصهم وأساليبهم •

هذه المتعة الفنية نراها أيضا فى أوانى النحاس منذ العصر الفاطمى حتى العصر المملوكى •• هى أيضا كانت من الصناعات الفنية الرائعة منذ الفراعنة تلقاها الفاطميون وابدعوا فيما نقشوا وزخرفوا حتى جعلوا منها مسرحا لفتنة الروح وتلقى عنهم المماليك هذا الفن فزادوه جلالا بهذه الأشكال من الأوانى والشمعدانات والأباريق التى صبوا فيها وجدانهم النحتى وبقدرتهم الفائقة على تكفيت المعادن بالذهب والفضة حتى كان عصرهم العصر الذهبى لهذا الفن •

هى ادوات للاستعمال ولكنها أيضا لامتاع الرؤى وتحقيق الفتنة للنفس ••

ذلك مسعى يتطلع الفنان العربى الى تحقيقه سواء رسم على

الورق أو نقش على المعادن أو نحت الاحجار أو زخرف النسيج ...  
ولقد أدرك عبد القادر الجرجاني في اسرار البلاغة هذا المعنى  
حين قال : « ان التصاوير التى يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش  
أو بالنحت والنقر تعجب وتخلب وتجعل النفس يغشاها ضرب من  
الفتنة » .

وجه آخر من وجوه العبقرية الاسلامية يتجلى في النسيج ذلك  
الذى أبدعت مصر روائعه في عصرها الفرعونى وتفننت الاسكندرية  
فيه في عصرها الهلينستى ، وجاء الخلفاء العباسيون فلمسوا  
الحاجة الى استخدام هذه العبقرية الموروثة في صناعة كسوة الكعبة  
وملابس التشريف .

وجاء الفاطميون بتطلعاتهم الى البذخ وحياتهم الحافلة بالابهة  
والمسرات فازداد النسيج أهمية وأخذت دور الطراز مكانتها .

وكانت اعلام مواكب الخلفاء كما روى القلقشندى تحفل برسوم  
سباع من الديباج الاحمر والاصفر ، وكذلك كانت ثيابهم موشاة  
بالزخارف فأتاح ذلك لفنان القاهرة مجالات للتعبير عن حسه  
الجمالى ، وحفل النسيج بصور الاقاليم الأرض وجبالها وبحارها  
الى جانب الوحدات الهندسية .

لم يبق من هذا النسيج الكثير ولكن الرواة نقلوا انينا ملامح  
من روائعه وكان الشعر العربى أيضا مصدرا من مصادر اثبات  
ما طمس واختفى من معالم الفنون الاسلامية فالمتنبى تبهره الرسوم  
في خيمة سيف الدولة :

وفوق حواشى كل ثوب موجه  
من الدر سمط لم يثقبه ناظمه

ترى حيوان البر مصطحبا بها

يحارب ضد ضده ويسالمة

كما نحت الفنان الاسلامى الخشب والرخام غانم اودع  
حشوات العاج الرقيقة همسة الفن فى براعة تلقاها عن اسلافه  
فى هذا المكان ، فلمصر فى فن العاج باع يرجع الى القديم ، ولقد  
كانت الاسكندرية مركزا من مراكز هذا الفن الذى ابدع فيه  
الفاطميون وخلفوا لنا مجموعة من تحفه بلغت حد الروعة فى تكويناتها  
وزخارفها .

أما فن التذهيب وتصوير الكتب وزخرفتها وتصميم غلافاتها فجلبها  
يرجع الى العصر المملوكى . هو عصر شغف باللون اضافة الى العمارة  
واحله فى الافاريز الخشبية مكان النحت عند الفاطميين وايداع تلك  
الزخرفة الذهبية النورانية لصفحات القرآن كما غمس مرقمه فى  
ألوان جعلت رسومه تجيش بحرارة الحياة وتخلب الالباب نرى ذلك  
فى صفحتين من مخطوط الجزرى « كتاب فى معرفة الحيل الهندسية »  
كما نراه فى كتب البيطرة والترياق وغيرها من كتب العلوم .

ومن هنا كان لفنون ادوات الحياة مكانها ومكانتها وهى التى  
أوصلت الاحساس بالفن لدى الجماهير . كانت أصغر ادوات الحياة  
تحفل بقيم الفن ومن هنا ازدهر فن الخزف ، وفن الزجاج ، وفنون  
النسيج ، التى كانت مسرحا للوجدان التصويرى فى ألوانها ومناظرها  
التى جمعت عوالم عدة .

ويكفى أن نسوق مثالا على ذلك من رحلة ناصر خسرو وانشاراته  
الى ازدهار الخزف الاسلامى وما بلغه من رقة وشفافية ومن استخدام  
الوانى الخزفية فى محلات التجارة بالقاهرة بديلا عن الورق فى  
العصر الحاضر ، فكان تجار البقالة والعطارة يضعون فى الاوانى الخزفية

الرقيقة ما يبيعونه وفي هذا الدليل على رقة ذوق ورفاهية في الاستعمال •

مؤرخ آخر هو المقرئى أطنب فى وصف روائع التحف الفنية الزجاجة الموهة بالذهب وغير الموهة وأقداح البلور والصحون الموهة بالمينا •

وكان الخط العربى مسرحا للإبداع التشكيلى ، ففى اللوحات الرخامية والحجرية للخط الكوفى تجمعت لمحات من الحياة وملامح وجوه وأشكال تكاد تفصح عن نفسها وراء التحرير الزخرفى للحروف فى أشكالها الآدمية والحيوانية المجردة والنباتية • هذا هو جانب من النحت الخفى فى الفن الإسلامى الى جانب المنحوتات الصريحة الم جمعة لتمائيل الحيوان التى ابداع الفنان الإسلامى صياغتها •

ولم تكن الكتابة العربية مجرد أداة لنقل الأفكار والمعانى بل هى أوغلت فى التفنن وتنوع الابداع واجتمعت لها أسرار العبقرية العربية •

على أن عبقرية التصوير العربى الصريح تمثلت فى المنمنمات •• فمنذ دخلت صناعة الورق العالم الإسلامى فى أواخر القرن الثالث الهجرى ظهر فن تزيين الكتب بالتصاویر وكان تصوير المخطوطات من براعات الفنان الإسلامى بل كانت الصورة مكملًا للكلمة ••• واحتوت الكتب بدائع الفنون التشكيلية من الخط والنقش والتذهيب والتلوين •

وفى المخطوطات القديمة التى حفظها الزمن كنوز تدل على حضارة وحس رفيف جعل من الكتاب فنا رائعًا بل محتوى لفنون عدة •

ان الكتب العربية تجسيد للإبداع التشكيلى فى اخراجها وفيما حوت منمنمات تعبر بصدق عن الحضارة العربية والحس العربى •

ولقد كان لازدهار المدرسة البغدادية في تصوير الكتب أثره في اعطاء فن التصوير العربى شخصاته المميزة وابرز قدره العبقريّة العربية الاسلاميّة على التمثل واحتواء عناصر وتأثيرات مختلفة وصهرها جميعا من أجل ابداع نمطها الخاص .

وان يحيى الواسطى مصور مقامات الحريري لنموذج رائع للعبقرية العربية التي طوفت واستعارت ثم صاغت براعة في الوسائل وقدرة التعبير واضفت على الفن هذه الروح الاسلاميّة والسمات العربية التي تميز بها التصوير في بغداد .

ولم تكن مقامات الواسطى وحدها هي نموذج هذا التصوير العربى الرائع بل ان صفحات كلية ودمنة والاغانى والمقامات الاخرى قد حفلت بروائع فيها صدق التعبير وشحنة الحياة وتصوير الاشياء وفق المنظور الروحى للفنان الاسلامى والقدرة على ابراز التكامل القائم بين الانسان ومجتمعه في ذلك العصر .

ولقد جاء ازدهار فنون الكتاب تصويرا وتنسيقا وتذهيبا مصاحبا للنهضة العامة التي أتاحَت للشعراء والكتاب والفلاسفة تلك الحرية الفكرية واقترن ذلك بحركة الترجمة والاقتباس من علوم وفنون الحضارات السابقة ، وكانت صور المخطوطات انطلاقة من التجريد الى التشخيص في الفن العربى الاسلامى بأسلوب تكامل أدائه وانتهى على عربية أصيلة .

ولم يقتصر التصوير العربى الاسلامى على مخطوطات بغداد بل ان مخطوطات القاهرة ودمشق وغيرها من الحواضر العربية حفلت بروائع من هذا الفن ، وتجلى الاحتفاء بالصورة في امتداد رقعتها الى كتب العلم .

وما كتب « البيطرة » و « الحيل » للجزرى والترياق ومخطوطة

ديسقوريدس في الاعشاب الا دلائل على العناية بهذا الفن واقتتران النهضة العلمية والادبية بنهضة في الفنون •

وكان ارتباط الفن بالحياة في المجتمع العربى ماثلا في آثاره الحضارية من العمارة الشاهقة حتى التحف والأدوات التى ذكر الرحالة في كتب اسفارهم عنها ما يفوق الحصر غير أن سنوات الشدة العظمى والنكبات التى حلت بالوطن العربى اتت على الكثير منها فقد كان الفن الاسلامى في حياة لا يتخفى في سرايب المقابر كما تخفت فنون الفراغة فجاءتنا بعد آلاف السنين طلوية الزمن محتفظة بما لها من جلال وبهاء •

ويدعونا هذا الى الحديث ببعض الاستفاضة عن المنمنمات في الفن العربى الاسلامى وما كان لها مكانة يدل على تاريخها البعيد هذا المخطوط من كتاب الاغانى لأبى الفرج الاصفهانى ، الذى يرجع الى القرن السابع الهجرى أى القرن الثالث عشر الميلادى • واثن توزعت نسخ هذا المخطوط بين كوبنهاجن واسطنبول الا ان دار الكتب المصرية ظفرت ببعض اجزائه ومن بينها الجزء الثانى الذى تنصدر احدى منمنماته فصلا من فصوله يتناول « ذكرى عدى بن زيد ونسبه وقصة مقتله » •

وعدى شاعر من شعراء الجاهلية تزوج هند بنت النعمان ثم اغتاله النعمان فحزنت هند وترهبت وجبست نفسها في دير بظاهر الحيرة حتى ماتت •

وقد استوقف المصور هذا الجانب من القصة فأراد أن يصور هند بنت النعمان ولها في الادب العربى مكانة من الحب والتقدير — واختار مشهدا من مشاهد الدير يمثل مرحا بريئا اشاعه غناء وموسيقى تردهما سرب من الفتيات احطن بهند في ديرها في يوم عيد •

وكثيرا ما نوه أبو الفرج صاحب الاغانى بفتيات الاديرة في كتابه ، ومن ذلك قوله :

خرجت يوم عيدها في ثياب الرواهب  
فتنت باختيالها كل جاء وذاهب  
لشقائق رايته يوم دير الثعالب  
تتهادى بنسوة كاعب في كواعب

نموذج آخر من المنمنمات تراه في مقامات الحريري التي تعد تصاویرها من أوضح اثار فن التصوير العربى ، غير أنها تدور جميعا حول محور أساسى هو التعبير عن قصة أبى زيد السروجى وكفاحه مع الحياة ، وهى تتحصر فى احداث حياته الخارجية وتعكف على تصوير اجواء الحياة الشعبية التى عاش فيها •

وعلى الرغم من أن الحب كان محورا أساسيا من محاور الادب العربى فان التعبير عنه قلما تبدى فى فنون العرب ولم يحفظ لنا التاريخ بعد تصاویر المقامات وهى تصاویر احداث ومناظر الا مخطوطین عالجا فى صورهما قصص الحب أحدهما بقايا مخطوط ينسبه بعض الباحثين الى المشرق العربى وغالبا مصر ، والاخر مخطوط ينتسب الى المغرب العربى قد يكون مصدره مراكش أو أسبانيا وزمانه القرن الثالث عشر •

ويروى هذا المخطوط قصة حب تاجر دمشقى يدعى بياض كان مرهف الحس ومولعا بالشعر وقد وقع فى غرام فتاة جميلة تدعى رياض وصيفة احدى النبيلات ، وتروى القصة أحداث هذا الحب الافلاطونى واحزانه ورسائل الغرام التى كان يبعثها بياض الى حبيبته ومعاناة كل منهما فى سبيل هذا الحب •



ومن أرق تصاوير هذه المخطوطة تلك التصويرة التي تصور بياض يعزف على عوده في قصر النبيلة وحولها وصيفات الشرف وقد أبدع الفنان في تصوير مختلف التعبيرات المرتسمة على الوجوه كما تفنن في توجيه حركاتها مما أضفى على اللوحة حياة .. وعلى خلاف التصوير في المشرق العربي فإن تصاوير هذه المخطوطة تصور أجواء الطبقة الراقية وكان من شأن ذلك أن أضفى على تكويناتها الرصانة والهدوء على خلاف ما يشغل تصاوير المقامات من حركة وصخب هي انعكاس للحياة الشعبية التي تعبر عنها وخلافا لصور المقامات أيضا فإن العناصر المعمارية تنتحى في اللوحة جانبا ولا تحتل فيها الصدارة وإنما تترك صدارة اللوحة للأشخاص والأشجار الذين تظلمهم ويعبر تشكيلها عن حس زخرفي مرهف للمصور المجهول الذي أضفى الحياة على حديث بياض ورياض في ذلك المخطوط النادر الذي تحتويه مكتبة الفاتيكان •

ولم يقتصر الفن على صوره وأشكاله واستخداماته في مجال الحياة بل انعكست مظاهره على ذوق المجتمع وسلوكه ندرك ذلك مما حفظته الكتب عن عز دمشق وأبهة بغداد وروعة مراكش وبهاء تونس وما كانت تحفل به القاهرة من مواكب وأعياد استخدمت فيها كل عبقريتها في التفنن •

وبعد الم تحظى القاهرة منذ ستة قرون بما لم تحظ به باريس الا منذ سنوات قليلة حين أمر الحكام بطلاء مبانيها باللون الأبيض فبدت وضاءة تزينها الألوان المتألقة في أسواق النسيج والنحاس ومتاجر الفاكهة والزهور •

ويصف الحسن بن محمد الوزان المعروف باسم أبو الأفريقي بعد طوافه بأفريقيا العربية تنظيمات الصانع الفنيين وكيف كان الاحتفال يجري حين ينتج واحد من الفنانين الحرفيين عملا يتسم بالابتكار

فتمضى طوائفهم فى مواكب تسبقها الموسيقى ويتقدمها الفنان  
المبتكر مرتديا ازياء من القماش الفاخر ويطوف به بمحترفات الحى  
معلنا عن ابتكاره ويقدم له زملاؤه النقوط احتفالا بظهور عمل  
فنى جديد •

وهذه الاشارات وغيرها فى كتب الاسفار والرحلات تنبىء عن  
مدى اهتمام المجتمع بابداعات الفنون وطرائف التحف وتدل على  
أن ارتباط الفن بالحياة جعله يحتل مكانا عزيزا فيها •

ولقد اختص بعض المؤرخين رجال الفنون بجانب من كتب  
الطبقات ، كما اختصوا علماء الطب والكيمياء والهندسة ، غير أنه  
لم يبلغنا من طبقات المصورين سوى اسم كتاب واحد « ضوء النبراس  
وانس الجلاس فى اخبار المزوقين من الناس » الذى ذكره المقرئى  
فى خطه ولم يهمل كثير من المؤرخين تراجم الفنانين وفيما وضعوه  
من كتب التراجم العامة • ومن هذه الكتب جمع تيمور باشا اخبار  
عدد من نوابغ المصورين والنحاتين والخرافين يتضح منها مدى ما كان  
للفنان فى المجتمع العربى من مكانة وحظوة •

ألم يكن ابن ادريس القرافى اماما وفقهيا بارعا فى صناعة  
التمائيل المتحركة وكان ابن الرزاز الجزرى مؤلف كتاب « الحيل  
الجامع بين العلم والعمل » من أهل الفن والعلم معا جمع موهبة  
الابتكار العلمى والابداع الفنى مثل ليوناردو فى عصر النهضة الايطالية  
وكان للخطاطين فى المجتمع العربى مكانة عظيمة ومن الولاة والحكام من  
مارس هذا الفن ببراعة • ولقد كان من الفضائل التى تذكر  
المعتصم أنه خطاط •

وعرفت العواصم العربية المساجلات الفنية على نحو ما كان يجرى  
بين الفنانين فى عصر النهضة الايطالية ، وتكفينا الاشارة الى قصة  
المصور ابن عزيز الذى استدعى من العراق الى مصر فى عهد الوزير

« أبو الحسن البازورى » لمناقشة القصير وكان من نوابغ مصورى العصر الفاطمى ولقد كان تتافسهما دليلا على ادراك فنانى هذا العصر وامتلاكهم اسرار الاداء كما كشف عن اهتمام الحكام بالفنون ورعايتهم لها •

ولقد عرفت المجتمعات العربية رعاة الفنون من الولاة والوزراء الذين جادوا على أهل الفن بسخاء وحققوا لهم فى حياتهم الاستقرار والمناخ الملائم للابداع •

على أن ظهور مجتمع الطبقة الوسطى من التجار بخاصة أتاح للفنون مزيدا من الازدهار وزادها ارتباطا بواقع الحياة اليومية وفنا فى تجميل الحياة كهدف من اهداف الفن الاسلامى الذى كانت زخارفه ونقوشه انعكاسا للغة التأسيسية فى مقاطع تقصر أو تطول ولكنها تفيض بالاجلال وبالاحاساس بالحمد لله والرضا بنعم الحياة •

وظلت هذه الفنون تجدد فى عطائها الى ان اذنت جذوتها بأفول •

## خاتمة

وبعد فان اتجأ الى هذا الجانب من جوانب الحياة الثقافية فى ظل الحضارة العربية الاسلامية ودعوتى الى توجيه الاهتمام اليه انما مبعثه أن معظم الدراسات الاثرية العربية المعاصرة على ايدى الكاتب العربى تمضى فى اتجاه يتسم غالبا اما بالدراسة التاريخية السطحية للعصور الفنية ، واما بالتسجيل الوصفى للآثر •

والاعمال التى تعمقت فى التراث الفنى الاثرى قليلة نادرة ••  
كما أن ادخال جانب الحياة الفنية فى كتابات المؤرخين أمر قليل

الحديث رغم أن الابداع الفنى فى العصور العربية الاسلامية ظاهرة اجتماعية لا تنفصل عن كل مظاهر الحياة بل عن العقيدة التى صاغت للامة العربية حضارتها •

من أجل هذا أصبح على الاثريين والمؤرخين النظر الى الابداع الفنى فى المجتمعات الاسلامية على أنه نتاج مجتمع له قيمه الدينية والتربوية ومقوماته الاقتصادية والاجتماعية •

وان الفن كظاهرة اجتماعية هو نتاج كل هذه القيم والمقومات •

لذلك فان أى تصور صحيح للفن والحضارة الاسلامية ينبغى أن يقوم على تدقيق الجزئيات وضم اثنتاتها فى كل متكامل وعلى دراسات واسعة لنهج الحياة واسلوبها وعلى جلاء للتأثيرات المختلفة ووضوح للمداخل الدقيقة لتطور المجتمع الاسلامى وعقائده وتركيبه ومؤسسته الحضارية التى أسهمت فى تكوين شخصيته الفنية •

وكذلك علاقة نهضة العلوم والهندسة والكيمياء فى تدعيم الصناعات الفنية ، واثـر حركة التجارة ، والمسالك ، والطرق المختلفة التى كانت تنتقل مؤثرات كثيرة الى هذه المجتمعات •

واذا كانت هذه المحاضرة قد تناولت بعض الملامح العامة من الحياة الفنية فان هذا المجال متسعاً لبحث الباحثين ولتوجيه الدراسات الابداعية فى فى الفنون الى ميدان مازال مفتقراً الى الرؤية العربية والحس العربى والفكر العربى فنحن أقدر على اكتشاف كتوزنا من الاخرين كما أننا أقدر على تفسيرها من منظور مرتبط بجذورها واع بأعماقها •

## مناقشة في المصادر اليمنية عن تاريخ الدولة الزيدية

دكتور محمد أمين صالح  
أستاذ التاريخ الاسلامى  
كلية الاداب - جامعة القاهرة

شهدت اليمن الحكم المستقل فى وقت مبكر من العصر الاسلامى بظهور الدولة الزيدية فى تهامة فى أوائل القرن الثالث الهجرى • ذلك أن الخلافة العباسية اتخذت سياسة جديدة فى اليمن أثر ثورة قوام بها الاشاعر وعك فى تهامة هى فصل منطقة السهول عن الجبال واعطائها الاستقلال الذاتى • ولقد كان لهذا الاجراء أثر كبير فى تاريخ اليمن ، اذ أوجد التبعية الدائمة ، فعليا ثم اسميا ، للخلافة المركزية • وبمعنى آخر حفظ سيادة المذهب السنى فى تهامة أمام مذاهب الشيعة من زيدية واسماعيلية فى نجد اليمن منذ أواخر القرن الثالث الهجرى •

فقد جاء اليمن أول عام ٢٠٤ هـ جيش خاص بعثه الخليفة المأمون العباسى على رأسه محمد بن زياد بعد توليته الامارة العامة بعقد عن اختيار على « الاعمال التهامية وما استولى عليه من الجبال » ، ومعه أحد بنى هشام بن عبد الملك بعهد الوزارة ، ومحمد بن هارون من بنى تغلب على القضاء والافتاء <sup>(١)</sup> • فكان أن نجح ابن

---

(١) عمارة اليمنى : المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد ٣٤ - ٣٧ و ٤١ القاهرة ١٩٦٧

ابن الديبع : بغية المستفيد فى أخبار مدينة زيد ١٥ مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء رقم ٧٠ تاريخ  
: قرة العيون فى اليمن الميمون ٩٣ مخطوط مكتبة الجامع الكبير بصنعاء رقم ٨٨ تاريخ

ابن المجاور : تاريخ المستبعد ٦٧/١ ، ليدن ١٩٥١ •

زياد في اخضاع قبيلتي عك والأشاعرة الثائرين بعد عدة وقائع ، واختط عاصمة جديدة لامارته في زبيد في شعبان عام ٢٠ هـ (٢) .

وكان مع ابن زياد مولى له يسمى جعفرا وصف بالدهاء والكفاية حتى يقال : ان زيادا بجعفره . أوفده ابن زياد الى المأمون بالعراق عام ٢٠٥ هـ محملا بالهدايا الجليلة والأموال العظيمة ، وعاد جعفر في السنة التالية ٢٠٦ هـ مزودا بقوة ضخمة من « ألفى فارس فيها من مسودة خراسان سبعمائة » (٣) .

ولاشك أن تلك القوة التي لم تفصح المصادر اليمنية عن الغرض من ارسالها ، تقوى نفوذ ابن زياد وسلطانه في تهامة . غير أننا نسمع عن قدوم قوة كبيرة أخرى جهزت في بغداد عام ٢٠٧ هـ بقيادة دينار بن عبد الملك ، الذي حضر موسم الحج ثم سار الى تهامة ومعه كتاب أمان من الخليفة المأمون الى رجل الطالبين يدعى عبد الرحمن بن أحمد ابن عبد الله ، قام يدعو الى الرضا من آل محمد وبايعته قبيلة عك بتهامة . وقد قبل الطالبى أمان الخليفة وآثر العافية ، وعاد مع القائد الى العراق (٤) .

فهل كانت قوة الفرسان التي عاد بها جعفر من العراق الى تهامة عام ٢٠٦ هـ غيرقادرة على مقاومة هذا الطالبى حتى تجيء هذه القوة الثانية في أثرها مباشرة ؟ أم أن الأمر لا يعدو قوة

---

(٢) : ٤١ ، بغية المستفيد : ١٨ ، ابن الجاور : ٦٧/١

(٣) المفيد ٤٢ ، ذكر في بغية المستفيد : ١٨ أن عدد مسودة خراسان تسعمائة . وكذا في غاية الأمانى في أخبار القطر اليماني : ١٥١/١ القاهرة ١٩٦٨ بينما ذكر في تاريخ المستبعد هذه القوة بألف فارس من مسودة خراسان سبعمائة (٦٧/١) .

(٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ٥٩٣٨/٨ دار المعارف الطبعة الثانية .

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ٣٨١/٦ بيروت ١٩٦٥

واحدة جاء بها جعفر المولى صحبه دينار القائد ؟ يبدو أن  
الاحتمال الثانى أقرب الى الصواب •

والسؤال الثانى هو ، الى أى جهات اليمن امتد حكم أو سلطان  
ابن زياد ؟ يذكر عمارة اليمنى وابن المجاور أن ابن زياد « ملك اقليم  
اليمن بأسره ، الجبال والتهائم » <sup>(٥)</sup> • ويعزز ابن الديبع ذلك بقوله  
« وأطاعه عرب اليمن كافة فى السهل والجبل • • وخطب له بصنعاء  
وصعده ونجران وبيجان » <sup>(٦)</sup> • بينما يذكر الجرا فى « أنه استولى  
على تهامة وعدن وحضرموت » <sup>(٧)</sup> • ونحن نميل الى القول الأخير •  
ذلك أن الخلافة العباسية ظلت ترسل الى اليمن ولاية لحكم صنعاء  
والجند <sup>(٨)</sup> • وكانت ولاية ابن زياد الأعمال التهامية وما استولى  
عليه من الجبال « يقصد بها الجبال المطلة على تهامة • كما كانت  
تعليمات الخليفة المأمون هى انشاء مدينة جديدة فى تهامة تكون  
عاصمة ومركزا يحفظ النفوذ العباسى • فكان أن ظهرت زبيد التى  
ظلت منذ نشأتها يتوالى الحكم فيها أسرات تدين بالولاء للخلافة  
العباسية حتى سقوطها <sup>(٩)</sup> •

كذلك يختلف المؤرخون كثيرا فى صحة اسم ابن زياد أمير تهامة •

---

(٥) المفيد : ٤٣ — تاريخ المستبعد : ٦٧/١

(٦) بغية المستفيد : ١٨

(٧) الجرافى : المقتطف فى تاريخ اليمن ٥٤ القاهرة ١٩٥١

(٨) أنظر الفصل الخامس من كتاب تاريخ اليمن الاسلامى ( عصر  
الولاة ) للمؤلف القاهرة ١٩٧٥

(٩) الأسرات التى حكمت فى زبيد هى على التوالى : الدولة الزيادية  
بنو نجاح ، بنو أيوب ، بنو رسول • ماعدا دولة بنى مهدي بعد بنى نجاح  
كانت خارجية قصيرة العمر •

فقيـل محمد بن عبد الله بن زياد (\*) • وقيل محمد بن ابراهيم بن  
عبد الله بن زايد بن أبيه (١٠) • وقيل محمد بن فلان بن عبيد الله بن  
زياد (١١) • ونرى الاتفاق على تسميته محمد بن زياد نسبة الى جده  
الأكبر •

وأيضاً يختلف المؤرخون في التحديد الزمني لفترات حكم  
الأمراء من أولاده من بعده وهم كما يذكرون ، ابراهيم بن محمد ولي  
بعد وفاة أبيه عام ٢٤٥ هـ الى عام ٢٨٠ هـ (١٢) أو ٢٨٢ هـ (٩٣)  
أو ٢٨٩ هـ (١٤) • ثم ولي بعد أي من هذه التواريخ ابنه زياد بن  
ابراهيم بن محمد ولم تطل مدته ولا يعرف تاريخ وفاته (١٥) • ثم  
أخوه أبو الجيش اسحق بن ابراهيم عام ٢٩٠ هـ (١٦) فطال عمره وحكم  
٨٠ سنة واختلف في سنة وفاته ٣٧١ هـ (١٧) أو ٣٩١ هـ (١٨) •

وليس بمستطاع الأخذ بهذا التاريخ أو ذلك بسبب مشكلة  
أخرى • فهناك حلقة مفقودة في تسلسل الأمراء الزياديين وخاصة  
قبل الأخير منهم • وقد فطن الى ذلك محقق مفيد عمارة ولم يفصل  
فيها ، انما أشار الى كتابات بعضها معاصرة رجعنا اليها وأضفنا  
الكثير غيرها لبحث هذه المشكلة •

(\*) بغية المستفيد : ١٨ ، المقتطف : ٥٤

(١٠) الزركلى : الاعلام ١٨٣/٦

(١١) المفيد : ٣٢ والحاشية ٢ نفس الصفحة ، ابن الجاور ٦٦/١

(١٢) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ٢/٢ — ٣ ليدن ١٩٣٦

(١٣) قرة العيون : ٩٤

(١٤) المفيد : ٤٧ الحاشية ٢ ، بغية المستفيد : ١٨

(١٥) المصادر الثلاثة السابقة ، ابن الجاور : ٦٧/١ — ٦٨

(١٦) تاريخ ثغر عدن : ١٦/٢ يقول با مخرمة هذا التاريخ بالظن

( نفسه ) •

(١٧) بغية المستفيد : ١٩

(١٨) المفيد : ٦٣



فقد ذكر مؤلف سيرة الهادي الى الحق يحيى بن الحسين ، وهو معاصر لأحداث أواخر القرن الثالث وفترة من القرن الرابع الهجريين ، ذكر اسم ابراهيم بن محمد صاحب زبيد استنجده جعفر ابن ابراهيم المناخي اثر استيلاء على بن الفضل أحد دعاة الاسماعيلية على بلدته المذيخرة في صفر عام ٢٩٢ هـ ، فأمدّه ابراهيم بن محمد بجيش كبير لاسترجاع المذيخرة فلقى الهزيمة والقتل في موقعة كبيرة عند وادي نخلة في رجب ٢٩٢ هـ (١٩) .

ولا يعرف بالضبط قرابة ابراهيم بن محمد صاحب زبيد هذا من الأسرة الزيدانية انما الثابت تاريخيا حكمه لزبيد عام ٢٩٢ هـ ، وكذا في العام التالي عندما تعرضت تهامة لغزوة على بن الفضل الأولى . فيكمل صاحب السيرة نسبه بابراهيم بن محمد بن علي ويرمز له بابن علي دون أن يذكر اللقب ( ابن زياد ) . استخلف أخاه أحمد بن محمد ابن علي على زبيد وخرج هو الى جبل وافر ، ووقف يقاوم ابن الفضل نحو شهرين ثم انهزم عنه الى بلد حكم في جمادى الآخرة ٢٩٣ هـ ، فدخل ابن الفضل الكدراء والمهجم واستباحهما ، ثم توجه الى زيد فانحاز أحمد منها فدخلها ابن الفضل . وبينما كان ابن الفضل يشيع القتل في زبيد ، هاجم ابن علي أصحاب ابن الفضل الذين خلفهم في الكدراء . ثم انصرف ابن الفضل عن تهامة وعاد ابن علي الى زبيد ، وعاد أخوه الى الكدراء (٢٠) .

---

(١٩) سيرة الهادي الى الحق : ٣٨٩ بيروت ١٩٧٢ ، يحيى الحسين : انباء الزمن في أخبار اليمن ٤١ و ٤٣ ليدن ١٩٣٦ يقول مؤلف السيرة أن ابراهيم بن محمد صاحب زبيد لم يمدّه بهذه المساعدة .

(٢٠) سيرة الهادي : ٣٩٢ قيل أن ابن الفضل أخذ معه نحو أربعة آلاف بكر سبائيا من زبيد ، أمر أتباعه بذبحهن عند موضع يسمى المشاحيط حتى لا يفتن أصحابه ( الجندي : السلوك في طبقات العلماء والملوك ٩٢ مخطوط بالجامع الكبير بصنعاء برقم ٩٥ تاريخ ، بغية المستفيد : ١٨ ) .

ثم جاء زبيد أحد رجال الدولة العباسية هو المظفر بن حاج والى اليمن من قبل المكتفى العباسى ، عين فى شوال ووصل زبيد فى ذى القعدة ٢٩٣ هـ (٢١) . وظل المظفر ابن حاج فى ربيد يمثل مركز الثقل العباسى ازاء الصراع الدائر فى الجبال آنذاك بين آل يعفر الحوالميين ، وعلى بن الفضل الداعى الاسماعيلى ، والهادى يحيى بن الحسين الامام الزيدى . اذ كان يتجمع حوله المخلصون للخلافة العباسية مثل ابن كيالة الذى كان يعترم المقاومة فى صنعاء ضد سلطان على بن الفضل وقت غياب الاخير عنها فى غزواته الأولى والثانية (٢٢) الآتى ذكرها . كذلك كان يتصدى لمحاولات الهادى الى الحق اثاره القوى المحلية فى تهامة . فقد تغلب المظفر بن حاج عام ٢٩٥ هـ على أحدهم ويعرف بالحكمى (٢٣) ، وهو عبد الله بن الخطاب الحكمى الذى كان الهادى قد أمده بخيل ورجال كثير ليثير القلاقل بنواحى عثر شمالى تهامة (٢٤) . وظل المظفر بن حاج حتى عام ٢٩٧ هـ حينما تعرضت زبيد لغزوة على بن الفضل الثانية ، فانحاز منها المظفر مدة سبعة أيام عمل ابن الفضل خلالها السبى والقتل فى زبيد ، ثم عاد الى معقله المذيخرة مستخلفا أحد رجاله ويدعى أحمد ابن على بزبيد ، فطرده منها المظفر بن حاج واستعادها (٢٥) .

ونرى من ذلك فترة عودة زبيد الى نفوذ الخلافة المركزى فى

---

(٢١) الطبرى : ١٠ / ١٢٨

(٢٢) سيرة الهادى : ٣٩١ و ٣٩٥ انظر تاريخ اليمن الاسلامى للمؤلف ١٦٨ و ١٦٩ ذكره ابن الديبع باسم بن كيالة مولى آل يعفر ، قتله أسعد بن أبى يعفر تمهيد الصلحة مع ابن الفضل ( قررة العيون : ٣٣ ) .

(٢٣) الطبرى : ١٠ / ١٣٨ ، ابن الاثير : ١٣ / ٨ ذكره باسم الحكمى .

(٢٤) سيرة الهادى : ٣٤٦ كان عبد الله بن الخطاب الحكمى قد انضم الى الهادى الى الحق اثناء غزواته ببلد الكحصى عام ٢٩١ هـ وعاد معه ( نفسه : ٢٩٦ — ٢٩٧ و ٢٣٥ ) .

(٢٥) سيرة الهادى : ٣٩٤

العشر الأواخر من القرن الثالث الهجرى هى فترة حكم المظفر بن حاج الذى بقى باليمن حتى وفاته بزبيد فى ربيع الثانى ٢٩٨ هـ (٢٦) فى وقت عنفوان الخطر الشيعى المزدوج ، زيدية واسماعيلية ، من نجد اليمن • وخلف محمد بن المظفر أباه فترة ثم عزل عن تهامة كما يقول صاحب السيرة ، وخرج الى عمه عج بن حاج والى مكة ، تاركا أمر زبيد لأحد قواد أبيه ويدعى ملاحظ بن عبد الله الرومى فى شوال ٢٩٨ هـ (٢٧) • بينما يذكر ابن الأثير « أن الخليفة العباسى استعمل ملاحظا على اليمن خلفا للمظفر » (٢٨) دون ابنه محمد حتى لا تصير ولاية زبيد وراثية فى أسرة المظفر • ومهما يكن فقد واجه ملاحظ أزمت شداد كان الرجل المناسب لها •

ذلك أن ابراهيم بن محمد على الأمير الزيدى السابق قبل المظفر بدأ التحرك لاستعادة امارته ، فقدم زبيد واستنال الجند فى ذى القعدة ٢٩٨ هـ ، فخرج منها ملاحظ متجئا الى بنى طريف بناحية عثر (٢٩) • ثم عمل ابن على على تقوية نفسه فى زبيد بكافة الوسائل حتى أنه لجأ الى عدو الأمس ، اذ كاتب على بن المفضل فأمدده بالرجال والأموال (٣٠) •

واذا كان ملاحظ قد آثر السلم وسلم زبيد للامير الزيدى ، فانه لم يرض عن تبعيته لأن الفضل الشيعى ، فتحرك لاستعادة ولايته بأن أعد جندا بمساعدة القاسم بن طريف وانضم اليه جراح

---

(٢٦) سيرة الهادى : ٣٩٦ ، الطبرى : ١٠/١٢٨ ، ابن الاثير : ٦٢/٨ حمل جثمانه فى صندوق ارسل بالبحر ودفن بمكة حيث كان إخوه عج بن حاج واليا •

(٢٧) سيرة الهادى : ٣٩٦ و ٣٩٧ •

(٢٨) ابن الاثير : ٦٢/٨

(٢٩) سير الهادى : ٢٩٧

(٣٠) نفس المصدر •

بن بشر — وهو زميل ابن كيالة في النضال ضد علي بن الفضل في صنعاء <sup>(٣١)</sup> — وتمكنت هذه القوات من دخول المهجم والكدراء ، وطرد عمال ابن علي منها ثم دخول زبيد التي خرج منها ابن علي هاربا الى المعافر في ربيع الثاني ٢٩٩ هـ <sup>(٣٢)</sup> ، مضيعا امارته . وكان أن اسند ملاحظ ولاية الكدراء الى جراح بن بشر مكافأة له <sup>(٣٣)</sup> .

ويبدو أن جراح بن بشر لم يكن راضيا عن ولاية الكدراء ويطمح في سلطات أكبر فقام في جمادى الآخرة ٢٩٩ هـ بالهجوم على بلدة المهجم وطرد عامل ملاحظ منها ونهبها <sup>(٣٤)</sup> . وهكذا واجه ملاحظ انقلاب الحليف الذي زاد خطره بمكاتبته العدو الأكبر علي بن الفضل أيضا ، حتى تعرضت زبيد لغزوة ثالثة من جانب ابن الفضل بمساعدة جراح . وأمام هذا الخطر أخلى ملاحظ زبيد من رجاله ومن أهلها ، فالتجأ هو الى المهجم وتفرق الأهالي بتهامة . وهكذا وجدها ابن الفضل خاوية <sup>(٣٥)</sup> . فانصرف عنها الى معقله المذيخرة في ربيع الأول ٣٠٠ هـ ، وتهيأت الفرصة للوالى ملاحظ القضاء على جراح ابن بشر بقتله وجميع من كان معه بنواحي المور بتهامة ، واستعاد سلطاته من جديد على زبيد والمهجم والكدراء <sup>(٣٦)</sup> . كما انتقم من ابن الفضل بالاغارة على حصنه المذيخرة في صفر ٣٠١ هـ وقت غيابه عنها في غزوته جيشان منذ ثوال ٣٠٠ هـ ، فعاد ابن الفضل سريعا ولم يظفر بالمغيرين <sup>(٣٧)</sup> .

ثم قضى ملاحظ فترة هادئة في حكم تهامة الى أن توفي في أول

(٣١) أنظر الفصل الخامس من تاريخ اليمن الاسلامي للمؤلف .

(٣٢) سير الهادي : ٣٩٨

(٣٣) نفس المصدر .

(٣٤) نفس المصدر .

(٣٥) سيرة الهادي : ٤٠١

(٣٦) نفس المصدر .

(٣٧) نفس المصدر : ٤٠٢

ربيع الأول ٣٠٣ هـ ليقوم من بعده في زبيد شخص يدعى عبد الله بن أبى الغارات (٣٨) مدة خمسين يوما عاد بعدها الى بلده مسالما الامر الى ابراهيم بن محمد الحرملى (٣٩) .

ولم تفصح المصادر المعاصرة أو اللاحقة كيف ظهر أمير زيادى بعد ذلك في زبيد يدعى ابراهيم بن زياد ، كاتبه أسعد بن أبى يعفر أمير صنعاء بخبر فتحه المذيخرة معقل القرامطة في رجب ٣٠٤ هـ (٤٠) . فهل هو ابراهيم بن محمد بن على الذى ذكره مؤلف سيرة الهادى ، ورمز له بابن على دون أن يذكر اللقب ، ابن زياد ؟

ثم من هو ابراهيم بن محمد الحرملى ؟ يقول مؤلف السيرة أنه « من قواد السلاطان ملاحظ » (٤١) . يقول فى موضع آخر أن عبد الحميد بن محمد بن الحجاج قائد الاسماعيلية من أهل مسور استنصر الحرملى وبعث له الاموال أثر هزيمتهم أمام الناصر أحمد بن الهادى يحيى فى موقعة نغاش أول رمضان ٣٠٦ هـ ، ( وبعث عبد الحميد بن محمد المسورى بالأموال الى الحرملى ) فأمدّه هذا بالجند لنصرتهم ، « فلم يشأ الناصر أحمد أن يحارب الحرملى لئلا يقع عند السلطان أنه يحارب قائده فينقطع الموسم عن فى بلاده من التجار » (٤٢) . فهل صار الحرملى قائدا للامير ابراهيم بن زياد ؟ نرى ذلك اعتمادا على ما يذكره المسعودى عن اليمى حوالى عام ٣٣٣ هـ بقوله « صاحب

---

(٣٨) كان عبد الله بن أبى الغارات يمثل احدى القوى المحلية بناحية المعافرة من انصار ملاحظ فى نضاله ضد ابن الفضل ، اذ قتل اكبر قواده ابن ذى الطوق الجيشانى ورجلا آخر معه فى ذى الحجة ٢٩٩ هـ وبعث برأسيهما الى ملاحظ ( سيرة الهادى : ٤٠٠ ) فأراد ابن الفضل الانتقام فسير جندا هزمهم ابن أبى الغارات أيضا ( سيرة الهادى : ٤٠١ ) .

(٣٩) سيرة الهادى : ٤٠٣

(٤٠) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ٢١٦ القاهرة ١٩٣٩

(٤١) سيرة الهادى : ٤٠٣

(٤٢) سيرة الهادى : ٤٠٥ ، انباء الزمن ٦٤

زبيد في وقتنا هذا ابراهيم بن زياد صاحب الحرملى » (٤٣) .

ومهما يكن من أمر فقد ظهرت الدولة الزيادية مرة أخرى ممثلة في ابراهيم بن زياد في مطلع القرن الرابع الهجرى ، خلفه ابنه على ابن ابراهيم بن زياد الذى أمد قيسا ابن الضحاك بمال عوناً له على محاربة الامام يوسف الداعى وذلك سنة ٣٦٨ هـ (٤٤) ، ثم كان آخرهم أخاه أبا الجيش اسحق بن ابراهيم كما تجمع المصادر اليمنية .

والخلاصة أنه لا صحة على الاطلاق لما تذكره المصادر اليمنية نقلاً عن عمارة اليمنى عن تسلسل الأمراء الزياديين في زبيد وكذا فترات حكمهم . فهم لا يذكرون ولاية المظفر بن حاج ثم ملاحظ بن عبد الله الرومى التى انقطع خلالها حكم الزياديين وخضعت تهامة للخلافة العباسية حوالى عشر سنوات ٢٩٣ — ٣٠٣ هـ وهى الفترة التى عاصرت قمة الصراع بين المذاهب المختلفة على اليمن سهلة وجبلية ، وحفظت لتهامة سيادة المذهب السنى .

وقد نتفق مع تلك المصادر اليمنية فى الأمراء الثلاثة الأولين وهم محمد بن زياد ٢٠٤ — ٢٤٥ هـ ثم ابنه ابراهيم بن محمد ٢٤٥ — ٢٨٠ هـ ؟ ، ثم زياد بن ابراهيم الذى لم تطل مدته أو يعرف تاريخ وفاته كما يقولون . ولا مذكر المؤرخون عنهم شيئاً ذا غناء سوى ما ذكرناه عن المؤسس الأول للدولة ، وما ذكر عن ابنه من بعده أنه قام الأمير خير قيام ، وسار سيرة محموده كأبيه فى امارته (٤٥) . ثم يأتى بعدهم بقائمة جديدة تبدأ بابراهيم بن محمد بن على ، وأغلب الظن أن جده عليا ابن ثان للمؤسس الأول للدولة ، واتضح

---

(٤٣) السعدى : مروج الذهب ٢٩٥/١ القاهرة ١٩٦٦

(٤٤) المفيد : الحاشية رقم ٤ للمحقق . .

(٤٥) تاريخ ثغر عدن : ٣/٢ ، قرة العيون : ٩٤

حكمه تاريخيا ٢٩٢ هـ وعرف باسم ابن على ، وانقطع حكمه فترة عشر سنوات كما سبق ذكره . ثم عرف في مطلع القرن الرابع الهجرى باسم ابراهيم بن زياد نسبة الى جده الأكبر ولا يعرف تاريخ وفاته . خلفه ابنه على بن ابراهيم ولا يعرف تاريخ وفاته أيضا ، وأخيرا أبو الجيش اسحق ابن ابراهيم أخوه الذى أطال المؤرخون حكمه وعمره ، ملك ٨٠ سنة ؟ دون داع . كما أنهم صوروا ضعف سلطانه ونفوذته على نواحى امارته بانشقاق عماله مثل سليمان بن طريف صاحب عثر ، والحرامى صاحب حلى . فلم يبق من ملكه سوى المنطقة الممتدة من الشرجة الى عدن طولا : ومن غلافقة الى صنعاء خمس مراحل عرضا ، فضلا عن تبعية جزيرة دهلك (٤٦) . كما خرج أيضا من ولاية أبى الجيش لحج وأبين وما عداها الى البلاد الشرقية (٤٧) . ولنا تعليق آخر على ذلك نذكره فيما بعد .

ويبدو أن اعداد الرقيق من النوبة والحبشة قد كثرت في زبيد كثرة ملحوظة ملات البيوتات العربية وكذا السلاط الزيادى كما كان في الامصار الاسلامية الاخرى واستخدم هذا الرقيق في الجيش وفي خدمة الامراء الزياديين . وقد أحسن تربية بعضهم وارتفع قدر الكثيرين منهم الى درجة الاستاذية ، فاتخذوا بدورهم لأنفسهم عبيدا ، فصاروا قوة ذات وزن . حتى اذا توفى أبو الجيش اسحق بن ابراهيم ٣٧١ هـ أو ٣٩١ هـ ، عن طفل صغير ، اختلف في اسمه ، وضع تحت وصاية عمته هند ، وعبد لأبيه أستاذ حبشى يدعى رشيدا . ثم خلف رشيدا في الوصاية والوزارة أحمد عبيدة من أولاد النوبة يدعى الحسين بن سلامة (٤٨) .

---

(٤٦) المفيد : ٦٠ و ٦١ و ٦٢ و ٦٣ ، بغية المستفيد : ١٨

(٤٨) المفيد : ٦٣ — ٦٤ ، بغية المستفيد : ١٩ ، تاريخ ثغر عدن :

وقد نسب الحسين هذا الى أمه سلامة دون أبيه وعرف بها ، فهو مجهول الأب والنسب ، وكذلك الحال بالنسبة لمن ذكر عن هؤلاء العبيد الذين ارتفع قدرهم . كذلك لا يعرف الكثير عن نشأة الحسين هذا سوى أنه من وصفاء رشيد ، أشرف على تربيته ، وأصقل تربيته وتأديبه <sup>(٤٩)</sup> ، فنشأ حازما عفيفا <sup>(٥٠)</sup> . وأصبح جديرا بأن يخلف سيده في الوصاية والوزارة . وحمل الحسين بن سلامة عبء الحكم بكل أمانة وإخلاص وتعددت جوانب أعماله السياسية والاجتماعية وضعت في مصاف الحكام الأقوياء المصلحين فأعطى الدولة حياة جديدة .

ويجمع المؤرخون اليمنيون الذين نقلوا عن مفيد عمارة كيف استعاد الحسين بن سلامة مملكة ابن زياد الأولى بمحاربة المنشقين عن الدولة بنواحي تهامة ، حتى خضع سليمان بن طرف عثر ، وابن الحرامى صاحب حلى <sup>(٥١)</sup> . كما استعاد عدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت <sup>(٥٢)</sup> ، وبعث نوابه المختارين على تلك النواحي <sup>(٥٣)</sup> . وصار الحسين بن سلامة جديرا بأن يحمل لقب القائد .

ولا نوافق عمارة فيما يذكره عن محاربة الحسين بن سلامة لأهل الجبال حتى دانوا <sup>(٥٤)</sup> فالأرجح أن يكون ذلك في الجبال المطلة على تهامة . أما نجد اليمن في ذلك الوقت فقد كانت السلطة موزعة فيه بين قوى متناحرة وفوضى ضاربة . فصنعاء مثلاً كانت فريسة للغالب من آل الضحاك من همدان ، وآل يعفر الحواليين حكام شيام وكحلان ، وآل أبو الفتوح من خولان ، والامامة الزيدية أيضا . فام يحاول الحسين

(٤٩) بغية المستفيد : ١٩.

(٥٠) بغية المستفيد : ١٩ ، المفيد : ٦٤ .

(٥١) المفيد : ٦٤ — ٦٥ ، بغية المستفيد : ١٩ .

(٥٢) تاريخ ثغر عدن : ١٦٣/٢ — ١٦٤ .

(٥٣) قرة العيون : ٩٥ .

(٥٤) المفيد : ٦٤ .



ابن سلامة وكذلك المظفر بن حاج وملاحظ بن عبد الله الرومي من قبل لم يحاولوا إخضاع هذه القوى المختلفة أو الاشتراك في تلك الحرب الطاحنة • وبمعنى آخر نقول أن هؤلاء الحكام حققوا الغرض الرئيسي الذي هدف إليه الخليفة المأمون من إقامة دولة مستقلة بتهامة يطوق بها من الغرب والجنوب نجد اليمن الذي تمزق القوى المحلية ذات المذاهب والميول المختلفة من أهل السنة أو الزيدية العلنة أو الاسماعيلية المستترة • فبعدت تهامة عن هذه الصراعات القبلية والمذهبية ، وظلت زبيد العاصمة تدين بالذهب السني وتعترف بالسيادة الروحية للخلافة العباسية •

كذلك أحسن الحسين بن سلامة صنعا باستخدام ثروة الدولة في عدد من المشاريع العمرانية التي خلدت اسمه في التاريخ • فيذكر عمارة اليمنى تخطيطه مدينة الكدراء على وادي سهام ، والمعقر على وادي ذوال (٦١) • والحقيقة أن هاتين المدينتين كانتا موجودتين قبل زمن الحسين بن سلامة ، إذ ذكرهما الهمداني قبل عصر ابن سلامة في كتابه صفة جزيرة العرب • ولذا فنحن نرجع أن ابن سلامة جددهما وأكثر من عمرانهما •

ونالت زبيد عناية الحسين بن سلامة • فأنشأ بها المسجد الجامع ومسجد الأشاعر وكذا مسجد معاذ في أسفل الوادي وكذا مسجد الفازة (٦٢) • كما نسب إليه بناء أول سور حول زبيد (٦٤) • جعل له أربعة أبواب • أحدها باب الشبارق ينفذ شرقا إلى قرية الشبارق من قرى وادي زبيد وإليها ينسب وإلى حصن قوارير • والثاني باب سهام في الشمال ينفذ إلى وادي رمع وسهام وهو وجه المدينة • والثالث باب غلافقه وينفذ إلى غلافقة ميناء زبيد غربا

---

(٦١) نفس المصدر : ٦٥

(٦٢) بغية المستفيد : ١٩

(٦٣) المفيد : ٢٢٠ ، بغية المستفيد : ١٩ ، قرة العيون ٩٧

على البحر الاحمر • والرابع ينفذ الى قرية القرتب وايها ينسب  
وينفذ الى وادى زبيد (٦٤) •

ومن محاسن الحسين بن سلامة أيضا أنه « أنشأ الجوامع الكبار ،  
والمنارات الطوال من حضرموت الى مكة • وحفر الآبار الروية والقلب  
العادية في المفاوز ، وبنى الاميال والفراسخ والبرد على الطرقات » (٦٥)  
وقد ظل بعضها عامرا حتى زمن عمارة اليمنى المتوفى ٥٥٩ هـ وشاهدها  
بنفسه • ويتضح مما ذكره عمارة تفصيلا (٦٦) عن هذه المساجد  
والآبار أنه مشروع عمرانى كبير نفذه الحسين بن سلامة ليسهل  
الحج اليمنى من أقصى الجنوب الى مكة بشقيه السهلى والساحلى ،  
وتمر داخل أراضى دولته وخارجها • فالطريق الجبلى انما يمر

(٦٤) بغية المستفيد : ١٧ ، قرة العيون : ٩٧

(٦٥) المفيد : ٦٦ ، بغية المستفيد : ١٩

(٦٦) يبدأ طريق الحج من شبام وتريم مدينتى حضرموت الى عدن ،  
والمسافة عشرون مرحلة فى كل مرحلة جامع ومأذنة وبئر • وفى عدن جدد  
الحسين بن سلامة المسجد الذى بنى فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز •  
ومن عدن الى مكة يفتقر الحج اليمنى الى طريقين الطريق العليا وهو  
جبلى ، والطريق السهلى فى تهامة • فطريق الجبال انشئ به مسجد  
الجؤه وكذا فى اب ثم النقىل ثم ذمار وصنعاء • ثم مسجد فى صنعاء ثم  
ما بين صنعاء وصعده ، ومنها الى الطائف ثم عقبة الطائف الى مكة • أما  
طريق تهامة فله خطان : الاول ساحلى على البحر ، والثانى الجادة  
السلطانية بين البحر والجبل واقسم فى كل مرحلة على هذين الخطين مسجد  
وبئر • فالساحلية تبدأ من عدن الى المخنق ثم العارة ثم عبدة ثم السقييا  
ثم باب المذنب ثم المخا ثم السحارى ثم الخرجة ثم الأهواب ثم غلافقة  
ثم نبعة ثم الحردة ثم الزرعة ثم الشرجة ثم المفجر ثم القنديرة ثم عثر  
ثم بيض ثم الدوبمة ثم حمضة ثم ذهبان ثم حلى ثم السرين ثم جدة •  
أما الوسطى فذات الخيف ثم موزع ثم الجدون ثم حيس ثم زبيد ثم فثال  
ثم الضجاع ثم القحمة ثم الكدراء ثم الجثة ثم عرق النشم ثم المهجم  
ثم مور ثم الواديان ثم جيزان ثم الساعد ثم تعشعر ثم المبنى ثم رياح  
ثم الهجر • ثم تلتقى طريق الجادة بالساحلية ويفترقان من السرين وبينهما  
وبين مكة خمسة أيام حفر على طول الابار مثل بئر الرياضة ثم سبخة  
الغراب ثم الخبت ثم بئر آدم فى وادى يللم ميقات أهل اليمن • وكذلك

بأراض ومدن ليست تحت نفوذه ، انما تخضع لقوى مختلفة كما بينا بالنسبة لصنعاء ، ومثل صعدة التي كانت مركز الامامة الزيدية • فلم يتوقف مشروعه العمراني في تلك البلاد بل مضى برضاء تلك القوى • ولا نشك في حصول الحسين بن سلامة على موافقة مسبقة لمشروعه تسمح لعماله وأمواله بالعمل بأمان ومساعدة في البلاد المختلفة ما دام المشروع لا يتعدى غرضه الديني الى أطماع أو نفوذ سياسي •

أما عن سياسته في حكم الرعية ، فقد اتصف بالعدل والاحسان مقتفيا بسيرة عمر بن عبد العزيز في أكثر احواله (٦٧) ، دائم التنقل بين مدن تهامة ، متخذا من الكدراء مقرا ، ولا يحتجب عن الناس ، بل يلتفون حوله يسألونه الصدقة أو رد المظالم (٦٨) •

وتصادفنا مرة أخرى مشكلة التحديد الزمني لفترة حكم القائد الحسين بن سلامه ، فرداها كما يذكر بروكلمان عدم تقيد مؤرخي اليمن بقوانين التاريخ الصحيح (٦٩) •

يذكر بامخرمة وابن الديبع وفاة أبي الجيش اسحق بن ابراهيم الزيادي عام ٣٧١ هـ ، وأن وصاية رشيد على ولده الصغير لم تطل كثيرا اذ هلك عن قرب ، فقام بالأمر بعده عبده الحسين بن سلامة (٧٠) • غير أن مصادر يمنية أخرى تشير الى غزوة قام بها عبد الله بن قحطان أحد آل يعفر الى زبيد عام ٣٧٩ هـ « هزم فيها ابن زياد ، وقتل من عسكره خلق كثير • ثم دخل زبيد وأعمل فيها النهب والسلب ، عاد

الطريق بين مكة وعرفات ( المفيد : ٦٦ — ٧٦ ) •

(٦٧) عمارة اليمنى المفيد : ٦٥ — ٦٦ ، قرّة العيون : ٩٥

(٦٨) المفيد : ٧٦ و ٧٧ ، تاريخ ثغر عدن : ٦٠/٢ — ٦١

(٦٩) مروكلمان : تاريخ الأدب العربي ٧/٣ الطبعة الثانية دارالمعارف

— مصر •

(٧٠) تاريخ ثغر عدن : ١٧/٢ ، بغيد المستفيد : ١٩

بعدها الى مقره كحلان (١٧) « فأبى وفاة أبى الجيش من هذا التاريخ ؟

أما عمارة اليمنى فانه يحدد تاريخ وفاة أبى الجيش أسحق وبدء وصاية رشيد على ولده الصغير بعام ٣٩١ هـ ، ولم يحدد تاريخ وفاة رشيد وحلول الحسين بن سلامة مكانه فى الوزارة والقيادة للامير الزيادى . وانما ذكر أنه « عمر فى الملك ثلاثين سنة عام ٤٠٢ هـ (٧٣) » وفى رواية عن الجندى أنه توفى عام ٤٠٣ هـ (٧٣) . وهذا التاريخ كما ترى متناقضة .

ويذكر ابن الاثير فى حوادث عام ٤٢٨ هـ ما يلى « وفيها توفى الأمير أبو عبد الله الحسين ابن سلامة أمير تهامة (٧٤) » . غير أن المؤرخين اليمنيين القدامى والمحدثين يرفضون هذا التاريخ فبا مخرمة يقول عنه « انه بعيد جدا (٧٥) » . كذلك يرفض بامخرمة نقشا رآه فى الطراز بأعلى المحراب فى مسجد الأشاعرة بزبيد ، وأن صورته بعد البسطة والآية الشريفة ما مثاله « أمر بعمل الحسين بن سلامة أمه الله من عفوه ، ويريد به من الله جزيل الثواب فى شهر ربيع الأول من شهور سنة ٤٢٥ هـ (٧٦) » . ويقول « انه يحتمل أن يكون الحسين بن سلامة أمر بعمارته بعد موته ، وحصل ما حصل من الاضطراب والفتنة بعد موته ، فلم تتفق عمارته الا فى هذا التاريخ (٧٧) » ، ويميل فى

---

(٧١) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ٤٢ — ٤٣ — القاهرة

١٩٦٥

(٧٢) المفيد : ٦٦

(٧٣) تاريخ ثغر عدن : ٦١/٢

(٧٤) ابن الاثير : ٤٥٥/٩

(٧٥) تاريخ ثغر عدن : ٦١/٢

(٧٦) نفس المصدر .

(٧٧) تاريخ ثغر عدن : ٦١/٢

النهاية الى التاريخ الذى ذكره عمارة <sup>(٧٨)</sup> ، وتبعه فى هذا محقق مفيد عمارة <sup>(٧٩)</sup> .

ولا مناص من اتباع المنهج العلمى باتخاذ هذا النقش وثيقة تحدد وفاة الحسين بن سلامة بعد هذا التاريخ أى عام ٤٢٨ هـ كما ذكر ابن الاثير . كى يخلفه من بعده فى الوزارة والوصاية عبد أستاذ اسمه مرجان من عبيد الحسين بن سلامة على طفل من آل زياد ، اختلف فى اسمه ، مع عمه له أيضا <sup>(٨٠)</sup> .

وتعطى تلك التناقضات والمشاكل فى تاريخ الدولة الزيادية مجالا للباحث فى استقراء المصادر واعمال الفكر ، بالاشارة الى حقيقة انتهاء حكم الأمراء الزياديين فى الربع الاخير من القرن الرابع الهجرى . فليس صحيحا ما تذكره المصادر اليمنية عن شيخوخة آخرهم ابي الجيش اسحق بن ابراهيم وأنها أدت الى ضعف سلطانه على نواحي اماراته بانشقاق عماله فى نواحي عثر وحلى وكذلك عدن . انما نلمس بدء الدور الذى لعبه عبيد القصر وقد شعروا بقوتهم للاستحواذ على حكم البلاد دون سادتهم . ولا نستبعد تدبيرهم أمر قتل هذا الامير الثيادى بعد فترة ليست طويلة من تولية الامارة ، كى يتولوا الوصاية على طفله الصغير طريقا للوزارة والقيادة . فكان رشيد أستاذ القصر هو الرأس المفكر ورجله أو عبده الحسين بن سلامة اليد العاملة . وعمل الاثنان معا فترة . فيشير ابن الديبع بأن الحسين ابن سلامة « قد ترأس فى حياة سيده رشيد واستولى على أموره كلها » <sup>(٨١)</sup> ، فلما مات سيده وشيكا قام مقامه فى الوصاية والحكم .

(٧٨) نفس المصدر .

(٧٩) المفيد : ٧٨ الحاشية رقم ٣ للملحق .

(٨٠) المفيد : ٧٨ - ٧٩ ، تاريخ المستبعد : ١/٧١

(٨١) قرة العيون : ٩٥

أما عن انشقاق عمال الأطراف في عثر وحلى وعدن ، فنرى أنه كان رد فعل لعدم تقبل العناصر العربية حكام هذه الجهات حكم العبيد في زبيد • فنهض الحسين بن سلامة من فورهِ لاختصاصهم بالقوة ، فثبت حكمه منتها سياسة العدل مع الرعية ، وحسن الجوار مع القوى الأخرى •

ثم ، ألم فترة الثلاثين عاما التي حكم فيها الحسين بن سلامة ، التي ذكرها عمارة ، كافية ليلبغ فيها ذلك الأمير الزيادي الطفل ، ابراهيم أو عبد الله أو زياد ، سن الرشد ويتولى سلطاته ؟ لا تشير المصادر الى ذلك بل تذكر أنه بعد وفاة الحسين بن سلامة حل أحد عبيده ويدعى مرجان مكانه في الوصاية والوزارة على طفل ، عبد الله أو ابراهيم ، كما يظنون ، بكفالة عمته • فمن أن جاء هذا الطفل الثاني ؟

نقول أنه لا وجود لطفل ثان إنما هو نفس الأول الذي بلغ سن الرشد ولم يكن له حول ولا طول مع وجود الحسين بن سلامة • حتى اذا خلفه مرجان في تلك الوصاية التي لم يعد لها مبرر ، أو بمعنى آخر في الحكم ، بدأ محاولة استرجاع سلطانه مستفيدا من خلاف بين رجلى مرجان : نفيس ونجاح • فأمل الأمير في نجاح الذي وصف بالرأفة والعدل ، والمتولى أعمال الكدراء والمهجم ومور والوديين ، دون نفيس الذي كان غشوما مرهوبا ، والمتولى الأمر في العاصمة • فبدأ هو وعمته الاتصال بنجاح الأمر الذي كثف عنه نفيس ، فتقرر مصير الأمير بأن حبس هو وعمته في غرفة ، وأقيم عليهما جدارا سدا مختوما • وتولى نفيس السلطان دون مرجان (٨٢) •

غير أن نجاحا لم يرض عن فعلة نفيس ، ولعله أراد أن يحل

---

(٨٢) المفيد : ٧٩ — ٨٠ تاريخ المستبعد : ١ / ٧١ ، بغية المستفيد : ٢٠ ، قرة العيون : ٩٨

محله في زبيد ، فجرد جيشا من الاسود والأحمر ، وتوجه الى زبيد واشتبك في عدة وقائع حامية مع نفيس . منها يوم رمع ، ويوم فشال انكسر فيهما نجاح ، ولكنه عاود القتال فانتصر في يوم العقدة ثم قتل نفيس في يوم العرق على باب زبيد . ودخلها نجاح حيث قبض على مرجان وأذاقه كأس الموت مع جثة نفيس بالطريقة السابقة (٨٣) .

وفي خلال هذا الصراع خرجت المناطق الجنوبية من تهامة ، عدن وأبين ولحج والشحر وحضرموت من سيادة زبيد بأن تغلب عليها بنو معن (٨٤) ، وهم احدى القوى المحلية .

وهكذا توالى خمسة أفراد من عبيد القصر على حكم تهامة ، أنهوا حكم الزياديين ثم عمل آخرهم نجاح على التمكين لنفسه ، ويكسب حكمه حقا شرعيا ، بالحصول على تفويض بالحكم من الخليفة العباسي . فكاتب دار الخلافة وبذل الطاعة ، فصدر له تقليد الامارة العامة « بما فيها القضاء » ونعت بالمؤيد نصير الدين (٨٥) ليبدأ عهد جديد في تاريخ زبيد ، معاصرا لقيام الدولة الصليحية في اقليم الجبال .

---

(٨٣) المفيد : ٨٠ — ٨١ ، ٧٢/١ ، بغية المستفيد : ٢١ ، قرة العيون : ٩٨ — ٩٩

(٨٤) المفيد — ٨٢ ، تاريخ المستبعد ٧٢/١ ، تاريخ ثغر عدن : ١٦٣/٢ — ١٦٤ تقول تلك المصادر أنهم ليسوا من بنى معن بن زائدة الشيباني الذي ولى اليمن على عهد المنصور العباسي . ولم يوضحوا أصلهم .

(٨٥) المفيد : ٨١ و ٨٢ ، قرة العيون ٩٩

